باب الشاعر والمناظرة

في قصيدة « رهين » المحبسين

قرأت في مقتطف دسمبر سنة ١٩٤٨ قصيدة مهداة الى روح أبي العلاء المعري (رهين المحبسين) لناظمها (كاظم مكي حسن) والقصيدة كانت منصبة على مدح أبي العلاء ولم يبد فيها ناظمها رأيه في الشاعر بل ظهر بمظهر المؤيد الى أبي العلاء في جميع ما قاله أو ما تفلسف فيه . وكما يبدو من قصيدته أنه وقع في خطيء الرأي من جهة نظرته التأييدية المطلقة الى أبي العلاء . ولذا فيحق لي أن أنبه الناظم الى بعض هنات الرأي في قصيدته وأولها : أن الشاعر يحس به أن يبين مناقب ومثالب ممدوحه ويبدي رأيه الشعري في ممدوحه أو أن يبين تعليلاً يعلو به بعض مثالبه حتى لكأنه يظهرها كأنها من قبيل المناقب . وهذا لم نجده في القصيدة بل وجدنا الناظم قد استرسل في المدح وأقصر عن تبيان رأيه في متناقضات أبي العلاء المعري المعروفة وهل أدل من هذا من قوله .

خلق الناس أنه فضلت أمة يحسبونهم للفساد

وقوله :

تحطمنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك

فما أوسع وأكبر التناقض بين الرأيين . إذ أن أحدهما ديني إرشادي والآخر كفري إلحادي غير مؤمن بالمعاد . وما يحق للبعض أن يرميه بالإلحاد .

وثانيها : لقد استرسل الناظم في تأييد أبي العلاء حتى لقد تحامل على [illegible] أنهم على حق في ذلك الأمر الذي يدل عدم انتباهه الى مواطن الضعف الظاهرة التي صرح منها ممدوحه وأنه مهتم فقط في سبك القصيدة في قالبها المقفى .

وثالثها . إن الناظم ينفي [illegible] نفياً قاطعاً عن ممدوحه وذلك في قوله [illegible] بعد الجمود ... ؟ ويعتقد في أنه ما [illegible] في حياته إلا الى حرية الرأي وحقيقة [illegible] أبي العلاء

وخواطره الشعرية تثبت عكس ما ذهب إليه ، إذ أن أبا العلاء في حياته أقرب الى الجمود منه الى الانعتاق في عالم الحرية .

وهل أدل على هذا من قوله .

« تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب في ازدياد »

وما الحياة لو دققت ، إلا نتيجة لتفاعل الفكر مع الطبيعة وموجوداتها .

وهل يوجد أكثر من قوله هذا تثبيطاً للهمم البدنية والفكرية . إنه الدعوة الى الجمود بأجلى مظاهرها . فكيف يؤكد ناشئنا تأكيداً قاطعاً بدعوته الى نبذ الجمود . وبأي دليل قطعي ؟ .

ورابعها : لقد استرسل صاحبنا في الأعضاء عن حياة أبي العلاء لتمسكه في جانب واحد منها حتى أنه لم ينتبه الى جانب الجمود في رأي أبي العلاء الذي نظمه بقوله :

وقلت تساقى الناس للذبح عنوةً وقسراً وتحشى في مرابطها الأسد

بقيت حصوراً لست ترضاك والدةً تذل وتشقى في جنايته الولد

إن هذين البيتين — ولو يظهر في أحدهما جانب الجمود — ليدلان دلالة قاطعة على أن أبا العلاء جامد يائس يدعو الى الجمود إذ أن دعوته بالحيوان وعدوه الى عدم اجراء التجارب الطبية عليه واستخراج الأمصال ، لو عرف هذا من فوائد وإذن فلا يسعى لتقيه البشرية بموت حيوان مؤذ ضار . وفي هذا ما فيه من خنق الأفكار والمفكرين وهم في المهود . وأما دعوته لقطع دابر النسل خوف سوء التربية فهي دليل على جمود الفكر ولو سلكتها الناس لما وجدت هذه الحضارة واختراعاتها ، ولا آراء مفكري البشرية ، بل لقد تحولت الأرض الى بلاقع ليس فيها إلا اليعافير وإلا العيس . ولو أنه كان يريد التفكير لطرأ له أنه قد يجيء في نسل المستقبل أناس مفكرون يستنبطون جميع الأغذية من النبات والمواد الكيمياوية ويستغنون عن ذبح الحيوان ويرأف به عن حدود المعقول .

سقت هذه الكلمات لأقلل من قيمة أبي العلاء كفيلسوف وحكيم لأؤكد بأنه ليس متفرداً بالكلام أن ناظم القصيد مدح أبا العلاء بما آراءه دون التعمق في النظر فيها .

وأملي أن ينتبه الى هذا والسلام .

القورنة البصرة نصير الحسن